وراء الحقائق

الأرقام تطحن العالم

مجلة نيو انترناشيونالیست (يونيه ١٩٩٢)

يجب على المرء ألا يقبل أية «حقيقة» إحصائية باعتبارها حقيقة لا تقبل النقاش حتى لو أتت من مصدر عظيم الاحترام كالأمم المتحدة. فعلينا أن نعامل كل «الحقائق» بحرص.

إن أي فرد استمع للمتحدثين الرسميين وهم «يلوكون» الحقائق التي تبين بما لا يقبل الشك كيف تَحسَّنَ الوضع الاقتصادي أو النظام الصحي تحسنًا مذهلاً بفضل إدارتهم «الرشيدة»، وقارن بين ما سمعه وبين خبرته الشخصية، سيتحقق لا محالة من أنه من الممكن دائمًا لِيّ عنق الإحصاءات وتشويهها لخدمة جهة نظر معينة ودعمها.

ولنضرب مثلاً واحدًا. عادة ما ننظر إلى ظروف التبادل التجاري المجحِفة التي توضع لدول العالم الثالث، ونشير إلى الانخفاض المستمر في أسعار المواد الخام المصدرة من تلك الدول في السوق العالمية. وبوسعنا أيضًا أن نوضح هذه النقطة باستخدام الرسم البياني التالي، الذي يُظهر تأثير الانخفاض المستمر في أسعار المواد الخام على ظروف التبادل التجاري.

ومصدر هذا الرسم البياني هو البنك الدولي (تقرير التنمية في العالم عام ١٩٩١)، ولأن هذه المنظمة ليست المتحدث الرسمي باسم الفقراء، فإن هذا يجعل المعلومة أكثر قيمة، وأشد تأثيرًا. ومنذ عام ١٩٧٣ وشروط التبادل التجاري تزداد سوءًا عامًا بعد عام.

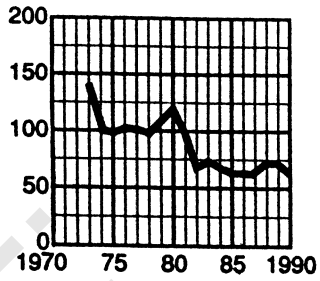

رسم بياني يوضح الانخفاض المستمر لسعر المواد الخام

والطريق التقليدي لإيضاح هذه الحقيقة هو أن نقول: إنه على دول العالم الثالث أن تصدر ضعف ما كانت تصدره من قطن وبُن وقصدير وما إلى ذلك لتشتري نفس ما كانت تشتريه عام ١٩٧٣.

وكل هذا حقيقي، بيدْ أننا كنا مقتصدين بعض الشيء في استخدام «الحقيقة». فلنلقِ نظرة على الرسم البياني الكامل الذي يُظهر ظروف التبادل التجاري طوال القرن من ١٩٠٠ إلى ١٩٩٠.

يتضح من هذا الجدول أن عام ١٩٧٣ ـ وهو نقطة البداية في الرسم البياني الأول ـ قد مثَّل في الواقع أفضل ظروف التبادل في هذا القرن «رغم أنها ظروف مجحفة كذلك». وظروف التبادل التجاري الحالية مروعة، وتُغرق دول العالم الثالث إغراقًا مستمرًا في الديون والمشاكل. فهذه الظروف أسوأ من أي وقت آخر في هذا القرن، عدا ما بعد الانهيار في بورصة وول ستريت عام ١٩٢٩، عندما انخفض طلب الدول الغنية على المواد الخام إلى أقل ما يمكن في أي وقت. بيد أن ما نريد إثباته يبدو أكثر وضوحًا وأكثر تأثيرًا وحِدّة عندما نُطلع القراء على الرسم البياني الأول فقط.

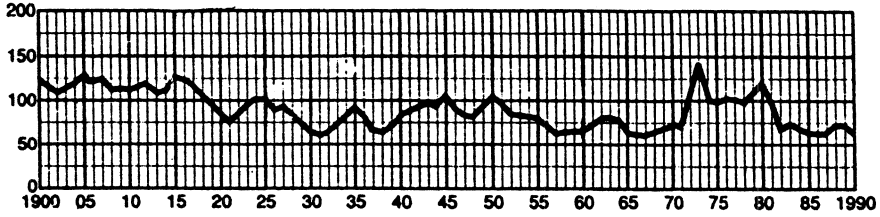

رسم بياني يبين تبادل المواد الخام مع المواد المصنَّعة (١٩٧٧ ـ ٧٩ ـ ١٠٠)

ويمكن توظيف أي إحصاءات بهذه الطريقة، ويجب أن نأخذ الحذر من الوثوق فيها ثقة كاملة. لكن يجب عليك أن ترتاب في بعضها وتشك فيه أكثر من غيره. وأول تلك الإحصاءات الواجب عليك أن تشكّ فيها هي أكثرها شيوعًا وانتشارًا وهو الناتج القومي الإجمالي للفرد (ن ق ج)، وهو رقم يُصدره البنك الدولي كل عام لكل دولة. وقد صار هذا الرقم هو المؤشر الأساسي على الفقر في العالم، وبوسعنا أن نضعه بهذه الطريقة لإظهار الهوة الواسعة التي تفصل بين العالم الغني وبين أفقر الدول.

[ن ق ج] الناتج القومي الإجمالي

● وقد صُمم هذا المؤشر ليعكس أفكارًا كنزية لم تعد تنطبق حتى على الدول الصناعية، فما بالك بدول العالم الثالث.

● ويستخدم (ن ق ج) مؤشرات اقتصادية اعتباطية ومطّاطة. وقد راهن عالم الاقتصاد «دولي سيرز» مرة بمبلغ ١٠ آلاف دولار على أنه بإمكانه استخدام نفس مجموعة الحسابات القومية للحصول على العديد من معدَّلات النمو الاقتصادي المختلفة، وكلها ستخدع الخبراء!!

● ويضخِّم هذا المؤشر من الهوَّة بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة. على سبيل المثال يمكن أن تعيش في الهند لمدة أسبوع على ما قيمته ١٠ دولارات أمريكية بينما في الولايات المتحدة ستعد محظوظًا لو بقيت على قيد الحياة لمدة يوم واحد. وبشكل أكثر عمومية يتضخم الناتج القومي الإجمالي تضخمًا شديدًا في الدول ذات المناخ البارد نتيجة لتكلفة التدفئة التي لا تنطبق على الدول الحارة.

● ولا يضع مؤشر (ن ق ج) في الحسبان التكلفة الاجتماعية أو البيئية للنشاط الاقتصادي. بل إنه يمكن أن يسجل هذه التكلفة على أساس

أنها تكلفة إيجابية. على سبيل المثال، فالمشروع الذي يسبب التلوُّث، ثم تأتي شركات أُخرى لتنظيف هذا التلوث يساهم في (ن ق ج) مساهمة أكبر من المشروع الذي لا يسبب التلوث!

● ويُغفل هذا المؤشر مناطق شاسعة من النشاط الإنساني، لا يمكن تقديرها بالمال، فقد يمتلك البشر الذين يعيشون على حد الكَفاف حضارة أغنى، وذات مستوى حياة أرقى كيفًا من غيرهم الذين يمتلكون الكثير من المال.

● ويُغفل هذا المؤشر العدد الضخم من التعاملات المالية النقدية، التي تحدث في نطاق الاقتصاد غير الرسمي، وفي العالم الثالث نادرًا ما يخرج فقراء المدن عن نطاق هذا «الاقتصاد الموازي».

بِيَدْ أن أكثر ما يقلقنا من (ن ق ج) في ذاته هو كيفية استخدامه طوال العقود القليلة الماضية. فعادة ما يقدَّم على أنه المؤشر الرئيسي للرخاء البشري، وهو المؤشر الإحصائي الوحيد المهم، ومثَله مثل عملية التنمية عمومًا، فإن هذا المؤشر يُظهر العالم كله، كما لو كان سائرًا على نفس الطريق الاجتماعي والاقتصادي الذي نَهجته أمم الغرب الغنية.

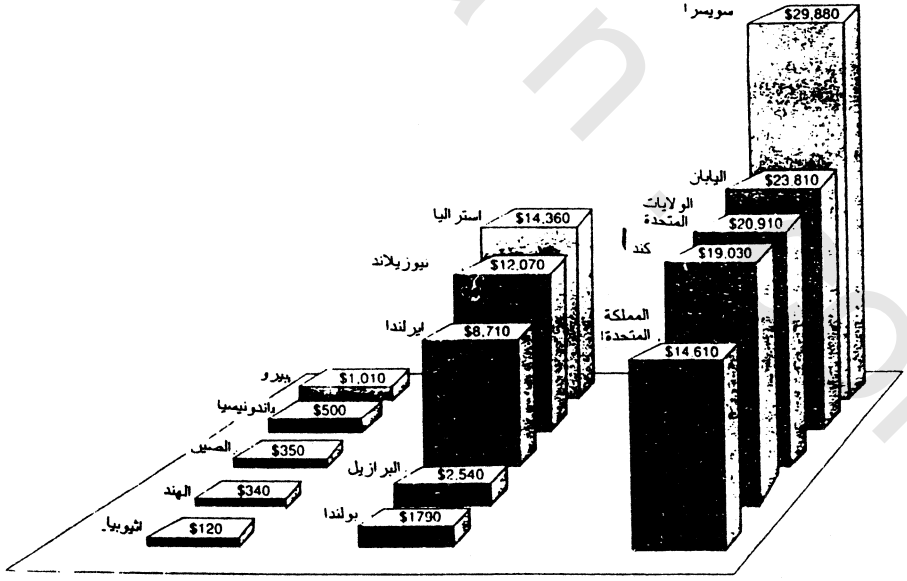

رسم بياني يوضح الناتج القومي للفرد في بعض دول العالم مُقَوَّماً بالدُّولار

ثمة مؤشر أفضل على نوعية الحياة في مجتمع، وهو معدل وفيات الأطفال، فالمرض والمشاكل وقهر النساء والمجاعة تنعكس كلها في هذا المؤشر. وترتيب اليونيسيف لأمم الأرض في ضوء معدلات وفيات الأطفال تحت سن الخامسة يعطينا صورة أوضح مما لو رتبنا هذه الأمم وفقًا للناتج القومي الإجمالي.

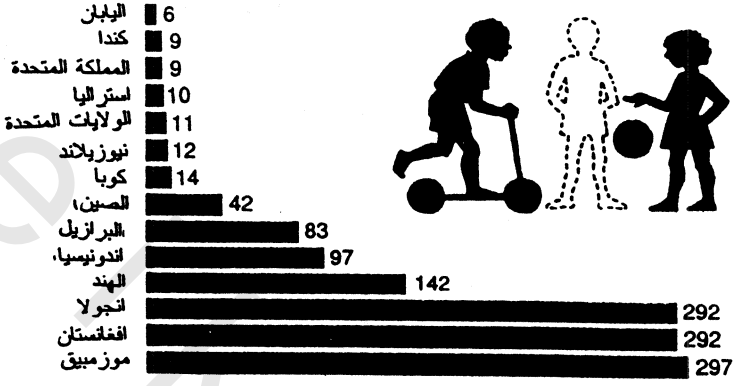

رسم بياني يوضح معدل وفيات الأطفال تحت ٥ سنوات لكل ١٠٠٠ مولود سنة ١٩٩٠م

بيْد أنه ينبغي أن تساوِرك بعض الشكوك حتى في هذه المؤشرات الإحصائية. حيث أنَّ معظمها عادة ما يكونُ قَدِيماً بشكل مرعب. وتُظهر الأرقام المستقاة من قاعدة بيانات قسم السكان بالأمم المتحدة أن ٥٠,٥ ٪ من الإحصائيات في البلاد النامية تعود إلى ما قبل ١٩٨٤. ومنذ هذا الحين ارتفعت الأرقام أو انخفضت بشكل إحصائي. من ثم فهي لا تُعطي أي فكرة عن التطورات التي حدثت بعد وصول الإيذز مثلاً، أو بعد أن أطلق صندوق النقد الدولي قذائفه السياسية من أجل تعديل البنية الاقتصادية في الدول الأكثر فقرًا من منتصف الثمانينيات. وهذا الأمر شديد الإقلاق في أفريقيا بصفة خاصة. حيث أنَّ ٦٨ ٪ من البيانات تعود إلى ما قبل ١٩٨٤.

ويستمر البحث من أجل الوصول إلى مؤشر إحصائي يُعطي إحساسًا أكبر عن حياة الناس غير (ن ق ج). وعلى سبيل المثال منذ ١٩٩٠ يطبع برنامج الأمم المتحدة للتنمية «تقرير التنمية البشرية» الذي يحاول أن يرتب الدول وفقًا لمؤشر مكون من ثلاثة أجزاء متساوية: متوسط العمر والتعليم والناتج المحلي الإجمالي [المضبوط بحيث تقل قيمة الدخل فوق خط الفقر].

وهذا المؤشر يغير من ترتيب الدول في القاع، بيْد أن الدول القليلة الغنية تظل على القمة.

وعلى ما يبدو لا توجد فئة إحصائية واحدة قادرة على صياغة غِنى تنوع التجربة البشرية، وقياس قدرتنا العامة على الرخاء. بيْد أن المؤكد أن القياس الإحصائي الأكثر شيوعًا وهو (ن ق ج) قياس غير ملائم إطلاقًا. ولذا فنحن نقول لك: متى رأيت هذه الحروف الكبيرة الثلاثة (ن ق ج) فلتأخذ حذرك.

* * *

opeikan.com